

## هرم تمدن الشرق وشباب تمدن الغرب

إذا حَلَقَتْ في سماء اطلال واشرفت على الشرق والغرب ظهر لك الشرق بصورة رجل شيخ حتى قنائه « الزمان » واضح خاطر القوي لا يسير الأبعكارة يستمد عليها خوفاً من السقوط . اما الغرب فيقبل لك بصورة رجل شاب غض الإهاب جديد القوي ممتد للتمامة جل همه اظهار قواه الادبية والعقلية عن محيطه يد دلالة على ما فيه من النشاط والسي كان الشرق يوماً شاباً كما يري الغرب في هذا اليوم إلا ان سير التمدن على توالي السنين قض عليه ان يشيخ فيبلغ هذه الدرجة من الضعف والهجور . واذا فكرت في التمدن رأيت نوره لم ينقطع في عصر من العصور فهو يشع ناره في مضع وظوراً في بلد مرة في الشمال واخرى في الجنوب حيناً في الشرق ووقتاً في الغرب . ألم تذكر حضارة الامم الخالية حضارة اليلاميين والمصريين والامراتاليين والاشوريين والكلدانيين والبابليين والفينيقيين واليونان والروم والغرب وما انتج كل قوم من العلم والصناعة والادب والسياسة والتدبير ؟ كل ذلك جاء شيئاً بعد شيء وفي وقته حتى اتصل بعمران اهل الغرب فاصبح اليوم جباراً عبقراً على القراءتين جم القوي يستضعف من حواليه ويستعظم في الميدان

نم ان حضارة هذا العصر قد تبدلت كل التبدل منذ القرن التاسع عشر واصبح فيه قوم الغرب غير ما كانوا عليه سابقاً . انظر الى دعائمهم وسياسهم وروادهم وتجارهم وعلماهم وعمالهم وصناعهم وسانتهم تجدهم يعبون البلاد ويعملون عملاً واحداً وهو تهذيب الامم وصورتهم الى مصدر الخير الاعظم والسعادة القصرى . واما قوتهم الحربية فهم لا يتخذونها الا اذا الخاتهم الضرورة اليها أو لم يبق في قوس الصبر منزع وحينئذ ينصرفون بها ليشبوا الامن والراحة على اسس متينة او على دعائم مكينة . وهم يحكمون عقد عراها بواسطة تحالف او تعاهد يجمعون به بين دولته ودولته . ولهذا قلت في ازماننا الفتوحات والغزوات والحروب بينا كانت في المصور السابقة آخذة بعضها ببعض في جميع بلاد الله لا تنقطع سنة من السنين اصبح الغرب في هذا اليوم في سير حثيث الى الحضارة بفضل الخطة الجديدة التي اتخذها لتشرائوار افكاره وبث خواصه ومساعدته الأتراء قد ترك على جانب ذرائع الظلم والنشم وتمك باصول ثابتة الأركان قائمة على اعطائه كل ذي حق حقه ؟ ألم يظهر نكل ذي عينين ان ابناء الغرب لا يذرعون الأ بذرائع الادب والطف لا بذرائع الفتك

والنصف . ألم يظهر للجميع ان عليهم أرق من علما وصناعتهم اسرع نتاجاً من صناعتنا وعملهم اوفى ذمة من عمالتنا وروّسناهم اشفق بمرورٍ وصيهم من رؤسائنا وحساباتهم اضبط من حساباتنا ؟ ألم يتفوا من قلوب العقلاء الضغائن والاحقاد المتولدة من القهر والجبر اللذين كان يلجأ اليهما ذورا للطمع او اليأس او الشدة

نعم ان الغربيين بلدوا في عهد قصير ما لم نبلفه الا في عصور مشطاوله . اصبح اليوم هؤلاء الذين كنا نسميهم غولجا او الحاجم او متوحشين او برابرة من اول الامم وفي مقدمتهم وذلك باتفاق الاتوال واجماع الآراء

وكان عمال الافرنج لم يكتفوا بما وصلوا اليه من علو المرتبة فوق الشرقيين فاخذوا يسعون اليوم في تمكين تفوقهم عليهم لكي لا يرجع الشرق الى سابق عزمه وسابق مجده . ويبقى الغرب هو المحلي في هذا الميدان اذ هو الغالب في هذه الحرب الضروس . ولهذا ترام دائبين في وصل العلم بالعمل سبياً وراء تحقيق امنهم لكي لا يئسروا ما اكتسبوه بمجدهم وكدهم في تلك المدة

ان هذا النوع من تنازع البقاء حلي السير لكنه لا يقعد اصحابه عن اتمام الطريق التي اخذوا بها . كما لا يلهمهم فوزهم الياصر عن التفتي الى الامام بتدبير ما نالوه سابقاً من علو المقام كما فعل من سبقهم من اولئك الانوام الذين اعتمدوا على نصرهم المين الاول فلم يريدوا بعد ان يجاهدوا طالما هم في الحياة مدعين انهم في حوز حريز مكين ولهذا قيل فيهم : « ما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين »

قالت ام الغرب : علينا ان نقتد جميع الوسائل التي تمنعنا من الهوي والسقوط من حالق تلك السنة الاخطاط والهبوط الجارية منذ العهد السابق . وهذا ما يمكننا ان نبلفه بيزم وحزم وتفكر وتدبر لان ليس سبب هذا الكون من القضاء المبرم والقدر المحنوم شيء معلوم انما خلق الله الكون وسلط على اهله الادواء لكنه عين لكل منها دواء . — نعم اننا نرى الامم اللاتينية المنصر تضعف بعض الضعف يجب المنصر المكسوني بيد ان ذلك لا يدل على ان سامة الاخطاط او الهبوط قد آتت او قربت

قالت تلك الام : ما الذي رفعا الى هذا العلاء ومكنتنا من الاخذ بشعفته ؟ — وما هي الاسباب التي تحملنا على اطلاقها من ايدينا ؟ — هناك مشكان يحق لنا ان نتحرى حلها حتى اذا نظرنا بهما جرينا نحن ايضاً على اثر اولئك المحاضير المناوير وأعدنا الى نفسنا ما كنا عليه من السبق واحرزنا مكانتنا الاولى من المجتمع البشري

ان اسباب العظمة والحضارة في امة من الامم كثيرة عديدة . وقد حضرها اغلب الافدمن في تمكين قوى الجند والدهاء في السياسة . لكن لو تدبروا الامر من جميع وجوهه لعلموا ان الامة تتألف من الافراد وقد يكون الافراد حسني السمعة والسريرة كما قد يكونون سيئها . وحيثما تكون الامة حسنة او سيئة بحسب ما تتألف من تلك الافراد . قل لي حفظك الله الا تدري ان الذهب الايريز يتألف من دقائق من جنسه ؟ او ليس ذرات الفحم تشبه الفحم ؟ او يجني من الشوك عنب ؟ اليس كل ثمر يقطف من الشجر الذي يثمره او هو من جنسه ؟

وطيه اذا حسنت الافراد حسنت العيال او الجماعات . واذا اجتمعت عيال مهذبة في موطن من المواطنين تقدمت منها المدينة . ومن تحاشد المدن تتألف الدول والممالك . هذا ولا يكفي للافراد حسن الآداب بل يجب ان يعيشوا متألفين دائمين في الاعمال المنتظمة لتتولد منها المدينة المنتظمة التي هي معين الثروة الصادقة . اذاً مشكلة الاقتصاد والتوفير تبين اليوم اصدق سبب لعظمة الامم وسعادتها لا مشكلة الجندية او الحنكة في السياسة

واذا ثبت هذا المبدأ فننظر الى الاسباب التي مكنت امم الغرب من الاخذ بناصية مقامها الاقتصادي والاسباب التي ثبت قدمها فيه . فهذا ما نريد ان نرصد له هذه الاسطر فنقول —

كل انسان يولد في العالم ومعه قدر من الذكاء والنور والحياة . وهو كثر يشترك فيه جميع الناس ويحقي لكل واحد منا ان ينجيه ويمسسه او يبدعه وشأله . فاذا تركه وشأنه قل فيه رويداً رويداً او نكب بصاحبه عن الطريق السوي القويم . اذاً لا نتقدم حضارة امة من الامم الا بتقدم افرادها . ونقدم الافراد لا بكونهم الا باغناء ذلك الكثر المشترك وتمحيبه . هذا فضلاً عن ان تقدم الافراد هذا مبني على تخريجهم وتدريبهم على هذا الصراط المستقيم الذي يتطلب صرف الجود الجهد وافرغ ما في الذرع والوسع والطاقة في هذا الوجه الحسن

واذا كان الغربي قد سبق الشرقي في الاقتصاد والتوفير مع انه كان دونه قبل التي سنة فهذا يدل على انه احسن التصرف بانكسر المشترك واستخرج منه قدرأ من العمل اعظم مما استخرجه منه الشرقي اوفاقه في هذا الخصرص . بينا اخذ اخوه الشرقي يتوالى في استشاره . بل ان الغربي نجح في اقتناع ابناء قومه في ان خيرهم وصلاحه ونجاحه وفائدة

نفسه وفرائض حاله توجب عليه ان يتخذ ذرائع علمه وذكائه في تحيين حظه وحفظ اخوانه في الوطن . وبالجملة ان الغرب علم احسن العلم ان الانسان هو المحرك الحقيقي للعمل فان احكم تهذيب الانسان وتحريجه ازدادت نتائج عمله . قلنا : اذا كانت الامر كذلك فاي معاهد شيدت لهذه الغاية وعلى اي مبادئ استند المصطلحون والى اي المذاهب ذهبوا لتحقيق هذه الاماني في نفوس المشتغلين بالعمل والصناع حتى ظهر هذا التقدم البين منذ نحو النصف من سنة . وما كان يا ترى قد سعى الانراد والجماعات والدول في هذا العمل الخطير . وهل ساعد النصر الديوي النصر الديني وهل اسرع او تباطت ائتلاف او تنافر هذين المبدأين القويين في سيرهما ؟ وهل الاختلاف في العقائد بين الشرق والغرب يوضح لنا التغيير الذي طرأ على توازن القوى الممدنة للعالم ؟ — واي تأثير يتركه الدين في نشوء وارتقاء العمل وفي طاقة افكار العالم اذا ذهبوا في تعليمهم الرسمي الى مذاهب تنفضي الى نبي الدين من المجتمع الانساني

فهذه كلها اسئلة يتولد منها اسئلة اخرى وكلها في منتهى الشأن والخطور . ويمكن بالباحث ان يعرضها على باسط نفع عليه انوار شمس التنقيب والتفتيش ليصير ما فيها من الزين والشين اذا اراد ان يتف على الحقائق المقررة ويعرف مواردها ومصادرها . — لا جرم اننا اذا عرفناها لا نتأخر عن ان نتبع آثارها فنصل اليها ونسابق بحاريتنا في التزامها على مشارعها

هذا والجواب عن هذه الاسئلة هو في منتهى اللطافة والدقة بل في غاية الخطر والخطور لانها تستلزم مسارف شتى ومباحث دقيقة قد يتيه فيها الدليل الحاذق . — على اننا نفرغ ما في وسعنا سعياً وراء نشد هذه الضالة ومن اترغ وسعة فقد عمل ما في طاقته والله لا يكلف نفساً الا طاقتها

وبما تقدم بيانه ترى انه لا بد من مطالعة التاريخ والوقوف على اسباب نشوء الامم ورقبها واستبحارها في العمران او المحطاطها وهرمها واضمحلالها . وعلى كل فان بحثنا هذا وان كان في حال الطفولة فهو لا يخلو من فائدة لمفكر او متدبر وكنى

اسمع